مُتَظاهِر وحَلْوَيات

الكتاب : مُتَظاهِر وحَلْوَيات

الكاتب : شاكيروف

تصميم الغلاف : محمد محسن

تنسيق داخلي : يوسف الفرماوي

مراجعة لغوية : الميلود عرنيبة

الطبعة : الأولى٢٠٢٠

رقم الإيداع: 2020/3266

الترقيم الدولي :978-977-6783-39-3

الناشر : السعيد للنشر والتوزيع

المدير العام : لمياء السعيد

برج الهادي – الدور الأول - 36 ش عبد الحميد الديب – شبرا مصر

0222017260 – 01550096215

elsaidpublisher@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر

مُتَظاهِر وحَلْوَيات

قصص قصيرة

تأليف

شاكيروف

الإهداء

إلى شهداء ٢٥ أكتوبر

لَيْث بغداد في عرينِه

لحيته بيضاء وملابسه سوداء، تائه كان في غابة الحياة، وحيد مع ماضيه المَلِيء بالخَيبَات، تترصده ضباع الزمن، دموع السماء تغسل روحه المعذبة قبل جسده المتسخ بدماء قتلاه، لا يرى سوى ظلمة الطريق ولا يشم سوى رائحة اغتصاب أرض الرافدين من عملاء وسراق وقتلة تتابعوا على مَر الزمن في غزواتهم عليه، لم يبك أو يزأر بل ظَلَّ صامتا يحاور أشباح الغربة والشَتات في وطن يراه ينحدر في هاوية أخرى حتى تمكن منه اليَأس الذي جعله يبتلع ألمه بمَرارة ويتفل قهره بحُرْقة. يصيخ السمع لنعيق الغربان المنذر بنَهش لحمه، لكنه لا يخاف ولا يفر من بين نذير شؤم طارده منذ سنين طوال، لا زال يمتلك رباطة جأشه وبصيص أمل في فجر صباح يتمنى أن يراه قبل الرحيل الأبدي عن تربة بلاد السواد. نخلة باسقة تيبست من رضع الغزاة لأثدائها، مرّ بجانبها، ما أن تركها بضع خطوات حتى التفت لها وهو يواسيها:

- لا تنتظري من شيخ كبير شيئا ولا تأملي إلا بشباب الغد الذين سيسقونك من ماء الحرية كي تنضج أثداؤك من جديد ويزهو سعفكِ بمطر الرَب حين يحين موعد القصاص.

ردت عليه وشعاع فجر سقط على وجهها المُتغضن، مانحا إياها بسمة أمل:

- أراهم يتجمعون في ساحة التحرير أيها الشيخ الجليل، فهل سيأتون بالحرية أم تقمع كغيرها من التظاهرات؟.

توسعت حدقتا عينيه الغائرتين وهو يقول لها:

- بماذا يهتفون؟.

- يهتفون للعراق.

- أي شعار يحملون؟.

- نُريد وطن.. نُريد وطن..

ما أن سمعها حتى انطلق بسرعته وهي من ورائه تناديه:

- أذهب إليهم وكن الأب والجد لهم.

وصل لساحة التحرير، يلهث بأنفاس ثقيلة مليئة بالفرح في فجر ٢٥ أكتوبر، التحم في نسيجهم، واجه القناصة معهم، بَكَى على الشهيد وتألمَ على الجريح. يرى القوة فيهم يستمدونها منه حين رابط معهم في جبهة التحرير لأيام وأسابيع، يكنس الساحة من الأوساخ ويساعد في تحضير الطعام ويصد الدخانيات على سواتر الجسور الثلاثة وهو يحمل علم العراق على ظهره. يتوسلون إليه أن يذهب ليوم أو يومين ليستريح لا يجيبهم سوى بِابْتِسامَة صمت الحكيم المرابط بظهر المقاتلين وحين ألحوا عليه أكثر من

مـرة وهـم يـرون التعـب قـد بـان عليـه، قـال لهـم:

- أنـا ليـث تائـه كنـت واليـوم وجـدت عرينـي في سـاحة التحريـر.

شُهَدَاء الحُرِّيَّة في قلبِ الرَب

تعتصر الحَسْرة القلب ويبكي ضمير الإنسان بحُرقة حتى تزلزلت غضبا ذات الرَب، يقمعون برصاص ينطلق من بنادق الغدر بضغطة إصبع عميل مدفوع الثمن كي يبقى طغاة العراق الجديد في كراسيهم التي تنخرها الأَرَضة، خائفين وحائرين من روح الشهيد التي ستهد ما بنوه من وَهَمَ الذي ينسل ما بين أصابعهم الملطخة بدماء الشهداء. لا صلاة أو دعاء نَفَذ من سحب السماء يخرج من أفواههم العفنة. يسكن الشهيد في قلب الرَب حيث الطُمَأْنينة والسلام والأبدية وفي ضمير العراق الذي لن يرحم قاتليهم. أرى عيونهم الغاضبة وشفاههم المبللة بطهارة دمائهم وصدورهم المبللة بحمرة دمهم كفجر لاح على ثغر العراق حتى سمعت الرَب يقول لهم:

-ناموا في قلبي مطمئنين وستروهم تحت أقدام أمهاتكم مذلولين.

يبتسمون، يحتضن أحدهم الآخر وهم يهتفون:

-خرجنا لأنك فوقنا، صبر أمهاتنا على فراقنا.

تبكي الملائكة ويصرخ صوت الرَب عالياً:

-الصبر سلاح أمهاتكم الذي سينفرج بغضبي على رؤوس الظالمين.

ردوا بصوت واحد:

- لبيك أيها الرَب.. لبيك أيها الرَب.

عـم الصمـت في داخـلي، شربـت دموعـي حتـى غـرق الحـزن في قلبـي واشـتدت عزيمتـي فقلـت في نفـسي:

_سـأخرج في الغـد وأصرخ بأعـلى صـوتي: أنـا العراقـي الـذي لا يمـوت برصاصـة الخائـن والمجـد والخلـود لشـهداء الحريـة في سـاحة التحريـر.

قِلادة ثِائر 25 أكتوبر

الريح تعدو ومن ثم تعوي، هاربة من صرخة حق الثائرين، والمطر لا ينزل خجلا من نظرات عيون الأحرار الصامدين، يقبض على أوراق الخريف بكف وينثرها بوجه السراق الحاقدين، يحمل بكفه الأخرى علم العراق الذي أرجع ماء الكرامة لوجهه الحزين، يَخِرُّ الرجال بألوان أديانهم وطوائفهم وقومياتهم ساجدين خلف حدود بلاد الرافدين، سائلين الرَب:

- أي شباب يزينون صدورهم بقنابل دخان الموت؟.

يركضون لا يفرون لحضن الخلود لا الموت، لن تنالهم يد الموت ما داموا على طريق حب الوطن الملغوم بقنابل الغدر، لا يصدهم دخان مسيل للدموع الذي يقبض على أنفاسهم ويشل حركتهم ويخترق رؤوسهُم، ثابتين غير راجعين بقوة إرادة لا تنثني تحت مطرقة الظلم المتصدعة من ضرب صدور الثائرين. علقوا قنبلة الموت البارد على صدورهم فحيتهم قلوبهم وصفقت ضمائرهم في مسرح التحرير وهو يُعَلِّم العالم الرجولة بالمجان. كُل صامت.. خائف.. مُتردِّد.. وحتى العدو كومبارس يتمنى أن يكون في مربع حرية في ساحات الاعتصام التي ترسم لنا كل يوم

لوحــة جميلــة رســمها ذات الثائــر المحــب للوطــن، تســنده المــرأة العراقيــة بقلــب لبــوة تنجــب رجــالا أصبحــوا ملــوك الأرض. اقتربــت مــن أحدهــم وحذرتــه:

-لا تعلكـه هـواي عـلى صـدرك صديقـي لأن خـاف بيـه بقايا مـواد كيمياوية.

ضحك ذاك الساخر من الموت وهو يقول لي:

- مو المهم شراح ايصير بيه المهم يرجع العراق.

متصلــب بــروح حــر لا يفكــر بنفســه كمُقاتــل جَسُــور في معركــة، خجلــت مــن تحذيــري لــه فدنــوت منــه أتلمســها وأتحســس بــرودة معدنهــا، نظــرت في عينيــه كأنهــما عينــا العـراق المنتفـض، رَبَـتَ عـلى كتفـه ومشـيت لأخـذ مربعـي في سـاحة الحريـة وأنـا مطمـئن أن للعـراق صـدرا كـدرع لا يثقـب ولا يصـدأ سيسـتيقظ عليـه في الغـد عـلى فجـر حيـاة كريمـة.

الثائِر الذي لا يموت

لم يكن يرى سوى الوطن بعيني طائر حر يحلق عاليا في سماء بغداد، يتغزل بها كشاعر تتراقص كلماته فرحا بعيني عراق مسلوب كي يبث فيه الأمل، يخطط كمهندس لإحياء النفوس الخربة قبل عمران بلده المُهدم، يصرخ كناشط مدني يُطالب بحق المظلومين لسنين في تظاهرات قمعت بجبن الظالمين الخائفين، لم أره ولا تحدثت معه ولا سمعته إلا بعد أن نالت منه قنبلة الغدر المسيلة للدموع، هشمت رأسه لكن سِحر خلوده طارَ في نفوس الثائِرين حتى زرع بذور الثورة في قلب كل مظلوم. رمزا للشهداء أصبح، أينما تلتفت في ساحة التحرير تراه مرسوما على الحيطان والقمصان واللافتات. تمنيت أن لو تكلمت معه أو مررت بجواره حينما كان يهتف بالجماهير كي أشرب من كلماته ما يمنحني الوقوف بوجه السارقين الجالسين في ضفة الخضراء لكن أُمنيتي تبخرت حين هدأت وعرفت أنني مُتخم بسماع صوته عاليا فيَ وأراه في طريق ثورة ٢٥ أكتوبر وأسمع ضحكاته عاليا تحلق في غرفة الذات التي كانت مُوحِشَة لكن صوته الذي يخرج من فم الخلود قد منحني إدراكا محسوسا لكل ما يختبئ وراء ستار الباطل

وعاطفــة تغرقنــي بمياههــا البــاردة كي تصلبنــي ولا تصيبنــي بالميوعــة وفكــر قــد شُــحذَ بقــوة صمــوده بوجــه الطغيــان، وســمعته يقــول مــن خــلال فيديــو:

- واحدنه أهم شي يخلي ذكر طيب.

لكننــي أجيبــك أنــك قــد تجــاوزت الذكــر الطيــب إلى ثائِــر في ذاكــرة كل ثــوري في ســاحة التحريــر وغيرهــا مــن ســاحات الصمــود، حفــرت فينــا معنــى حــب الوطن مــع إخوتك الشــهداء بعدمــا تناثــر حبــه بقــوة فــتن الســنوات الماضيــة. جالســا أراك في قــارب بميــاه دجلــة، تشــبك يديــك وراء رأســك ومتأمــلا مــا تركتــه أيهــا الحــر مــن طيــب وثــورة في قلــوب الأحــرار. ابــن ثنــوة أنــت، تلــك اللَّبــوَة التــي لا تعــرف الخــوف، أيهــا الثائِــر الــذي لا يمــوت في ضمــير وطــن يصــارع الوحــوش، الحــر وحــده مــن يــراك يــا صفــاء الــسراي والعبــد يركــض خائفــا في حضــن ســيده عندمــا يلمــح طيفــك في وجــوه الثــوار الذيــن لا يهابــون المــوت كي يرجعــوا الوطــن للوطــن بقــوة ثائِــر لا يــترك ســاحة الحريــة حتــى يقمــع العبوديــة بجملتــك الشــهيرة:

_ محد أيحب العراق بكدي.

حَمامة فوق تابُوت الشَهِيد

تحملـه أذرع الأحـرار في سـاحة التحريـر حيـث الثـوار الصامـدون في وجـه رصـاص السـارقين القتلـة، يشـيعونه إلى مثـواه الأخـير الـذي لا يمـوت فيـه بـل يبقـى خالـدا في فـم التأريـخ، تتعـالى الصيحـات وتكـبُر الآهـات التـي تزفرهـا إرادة المقاتـل في قلـب كل متظاهـر وتدمـع العـين وتجهـش نفـوس البعـض عـلى الشـهيد الـذي حطـت روحـه عـلى تابوتـه كحمامـة بيضـاء، الـكل صمتـوا وابتسـموا في وجـه الحـزن ومـن ثـم صرخـوا بوجـه الخـوف أن لا اندثـار لـدم الشـهيد ولا فنـاء لروحـه النائمـة في جسـده الـذي سـيدفن في قـبر؛ بـل هـا هـي روحـه تحـط عـلى تابوتـه تنظـر بعينـين في اليمنـى طُمَأْنينـة صمـود إخوانـه واليـسرى تـرى ضفـة الأشرار الأخـرى وهـي تُطمـر برمـاد شرهـا. تـاج التابـوت هـو الحمامـة البيضـاء التـي تمثـل الرمـز المقـدس لسـلمية التظاهـر في بلـد لم يشـهد مثلهـا ولا في غيرهـا مـن قـوة إرادة لا يثنيهـا دخـان موقدهـم الـذي يطبخـون في جوفـه طبخـة الـشر الحلـوة في قـدر أسـود، يذوقونهـا فيقـول أحدهـم للآخـر لم تنضـج بعـد، يرمـون القـدر بمـا فيـه ويعيـدون الطبخـة مـن جديـد حتـى شـعروا بسـم مـا ذاقـوا مـن طبخـات فاسـدة كلهـا أعلنـت الاستسـلام أمـام ثـورة

٢٥ أكتوبـر. تُحلـق الحمامـة البيضـاء بـروح الشـهيد عاليـا في سـماء بغـداد، تـرى التابـوت ينحـدر إلى المقـبرة وتبقـى محلقـة في سـماء سـاحة التحريـر، عابـرة للضفـة الأخـرى تـرى أشـباه الرجـال المرتديـن الأسـود المقنعـين، الخـوف في عيونهـم والرعب في قلوبهـم، تحـط عـلى الصبـات الفاصلـة بـين المتظاهريـن والشـغب، لا يرونهـا بـل تراهـم أن لا نفـس فيهـم لحـر بـل كلهـم عبيـد ومأجـورون بفتـات مـال السـلطة، تطـير فرحـة في سـماء الحريـة فـوق رؤوس آلاف المتظاهريـن وروح الشـهيد تنظـر بعينيهـا نـصر الثـورة الـذي تحقـق منـذ اليـوم الأول لهـا حتـى حطـت عـلى جداريـة فائـق حسـن وهـي تقـول:

- ها قد وجدت الجدار الذي أنتمي إليه.

الحُب في قلبِ التحرير

جاءت تركض منذ ٢٥ أكتوبر إلى ساحة التحرير وهي تحمل عدتها مع زملاء لها في المستشفى كي تداوي جراح المتظاهرين وتنعش قلوب المختنقين بدخان حارق للعيون وجارح للصدور، تركت مع الكثيرين والكثيرات من أطباء وطبيبات وممرضين وممرضات الوظيفة غير مكترثين بما سيتخذ بهم من إجراءات إدارية تعسفية. لم تكن تزور جانب الرصافة إلا ما ندر، بيتها وعملها في جانب الكرخ، كل حياتها اتيكيت يصعد إلى سلم العوائل التي تعيش كالبرجوازيين لكن حين سمعت صوت الوطن يصرخ بحناجر أبنائه المصابين برصاص الغدر ودخان الموت لم تتهاون في الركض لضفة المنتفضين حيث ساحة التحرير التي تجمع شباب وشابات ضفتي بغداد. لم تشعر بقدميها كيف يسوقانها إلى ساحة معركة الحرية، قلبها يتسارع لكنه صلب لا يخاف، من النهار حتى الليل مع زملائها تداوي الجرحى وتنعش المختنقين وتذرف الدمع على الشهداء المقتولين برصاص أسود لا يثني عزيمة الثائِرين. مَلَّ الأهل والأصدقاء من انتزاعها من ساحة التحرير لكن الصُدْفة أوقفت فيها الزمن وانتزعتها من لباس النظرة الفوقية التي

كانت تنظر بها لثلة مسحوقين بالفقر، حين وقف شاب يلبس كمامه، عيناه تحرقاه بشدة، رشت الدواء فيهما، وما أن سحب الكمامة البيضاء من نصف وجهه حتى شعرت بقلبها يضرب ندما على رفضها لحُب هذا الشاب الذي رفضته قبل سنة بالرغم من حبها له لكن كبرياءها وقف حاجزا بينها وبينه، لا لسبب بل فقط لأنهُ فقير المال ومن عائلة بسيطة لا نفوذ لها سوى السمعة الطيبة. ما أن أرادت الهرب من عينية الدامعتين حتى قال لها:

- وين رايحه وعايفتني مرة ثانية؟.

لم تتمالك نفسها حتى شعرت بقلبها يجهش بالبكاء قبل عينيها الدامعتين. نظرت في عينيه قائلة بصوت مخنوق بالندم:

- أني أسفه.

- لا تتأسفين على أيام راحت، كله جانت غايبه عن الحُب.

مسكت يده وقالت له:

- من شفتك كرهت ذيج البنيه الي رفضتك، كله أنانية ونظرته فوقية متعرف بس الاتيكيت والفلوس.

- هذا سحر حب الوطن كشف معدنج الحقيقي ومعدني، ما بقت طبقية ولا نظرة فوقية كله ذابت بهاي الثورة إلى خلتنه انحب بعض بكُل عفوية.

مسحت دموعها، ابتسمت تقول فرحه:

- اني احبك بكد العراق.

- وأني احبج بكد متظاهرين ساحة التحرير.

ضحكا وكفاهما متشابكان، يسيران في ما خلف نصب الحرية حيث سيقتلان الماضي وينيران الحاضر بوقفتهما كتفا بكتف مع المتظاهرين ويرسمان المستقبل بريشة الحب في قلب التحرير.

امرأتان من مياه الحُرِّيَّة

تركتا البيت، التحقتا بأبنائهما، تنفستا بعمق وزفرتا حسرات الماضي، لكن قبلها نظرتا إلى البيت كي تخطفا شيئا يساعد في دفع عجلة أكتوبر للأمام، كل شيء في ساحة التحرير إلا الغسالة التي حملت على أكتاف الأم العراقية كي يكون مكانها في بيت العراق (ساحة التحرير). جلستا على رصيفه والغسالتين أمام أقدامهما، تصرخان بأعلى صوت:

- جيبوا ملابسكم حتى نغسلهن.

تصاعدت روح حب الوطن في دماء الوجود الذي قام من قبر العبودية، حيا المرأتين اللتين خلقتا من مياه دجلة الحرة بروح تسبح على ضفتيها في القلب والضمير، تغسلان عرق جهادهم ضد الطغيان الأعمى وتبكيان حين تشمان دم الشهيد والجريح وتلعنان دخان الأبالسة المنسوج بملابس الأبطال، إنهما نهران من عطاء ينبعان من دجلة الحرة التي تغني مكنوناتها نشيد العراق الشامخ فوق كل انتماء. يشرب المتظاهر الثائِر من ماء الحرية حين يستلم ملابسه نظيفة كالعطشان الذي يرتوي من كفي عابر سبيل لكن هاتين المرأتين ليستا كعابر سبيل بل روح الوطن كرمز للأم العراقية التي لا تتهاون حين تصيبنا المُصيبات التي ستموت

جميعهـا غرقـا في مقـبرة نهـر الحريـة (دجلـة) بقـوة سـاعدي المرأتـين المخلوقتـين مـن ميـاه نهـر (دجلـة) الحريـة.

أَمِيرة الحُرِّيَّة النائِمة

العين تمتلئ بماء الكبرياء، والفم يصمت لطبل الكرامة، والأذن تسمع ملائكة السماء تغني أغنية أَمِيرة الحُرِّيَّة النائمة. لم أصدق أنني أرى تلك الطبيبة تفترش من الرصيف في ساحة التحرير سريرا لها تريح بدنها من إسعاف إخوتها المتظاهرين، هي ملاك الرحمة ببدن إنسية ترفرف روحها ليل نهار وراء أبناء العراق الصارخين بوحدته التي عاث بها سراق الأحلام عبثا لسنوات مضت. بنت بغداد أميرة في حضن ساحة تحرير، تنام وقلبها مفتوح العينين وضميرها حارس يقف بظهر المتظاهرين، تنام مفتوحة عيني الذات القلقة على أرواح إخوتها الواقفين بوجه دخان غضب السياسيين، لا شيء أنا في حضرة الأميرة النائمة، من أنا في حضرة مملكة العراقيات الصامدات والمطيبات لجراح السلميين. ولدتك ملكة في بلاط المرأة العراقية القوية الإرادة وتوجك أبوك العراق بأعرق تاج على وجه التأريخ، ترتدي الدكتورة صدرية وكمامة بيضاء، وتحمل الدواء، حتى أصبحت شوكة في عيون اللُعناء والأعداء. طالت وقفتي فقررت الذهاب كي لا تراني وأنا مهزوم أنظر إليها بل أريدها أن تراني واقفا على بوابة مملكتها كي لا يدنو منها أحفاد الشر.

مَسرحي على خَشَبة الحُرِّيَّة

يُحدق في الحشود، الفرحة الصارخة بحب الوطن ويسمع أجمل الهتافات التي تغلبت على أعظم الحوارات التي حفظها في كافة المسرحيات. تنفس هواء الحرية بعد أن خنق روحه صمت الخوف الجمعي، مصدوم ومتفاجئ وفرح لأنه يعيش أيام أكتوبر المجيدة، متفرج في مربع متظاهر صامت يحاكي نفسه التي وجدت بر الأمان بعد طول تيهان. يشعر بالأرض تَهْتَزُّ تحت قدميه من خطوات متظاهري ساحة التحرير المتقاطعة وأصوات تخشع لها السماء. يرى المسرح الدوار في معهد الفنون الجميلة صامتا ومعتما وكئيبا لا حياة فيه بعين والأخرى ترى مسرح الحرية حيا وواقفا على دعامات الإرادة المبنية من طابوق سومري وبابلي وأكدي، يختبئ خلف كواليسه ممثلون فاشلون حائرون بحرق خشب سنديان مسرح الحرية الذي تخافه نار المختبئين في ظلمة كابوسهم. تحدث إلى نفسه بفخر:

- أغلقوا المسارح جميعها واصلبوا ممثليها على أبوابها وجففوا حبر كُتَّابها واجعلوا من مخرجيها شاهدا على عجزهم في بث الوعي فيكم، منكم نتعلم كيف تثور

النفـس في مـسرح الحريـة حيـث لا قنـاع ممثـل الـذي سـقط أمـام وجـه الحريـة.

ظَـلَّ يُحـدق في عيـون أبـو التوكتـك والمسـعفين والثـوار المحتجـين بأصـوات تنطلـق كأنهـا رصـاص في صـدور القتلـة، يسـبح بعيـداً في ميـاه البحـر الهائـج الـذي سـيلفظ السـارقين مـا وراء كواليسـهم المظلمـة. قضـوا عـلى كذبـة المسرح السـاخر والضاحـك عـلى نفسـه الـذي ينحـدر في مـا وراء الجمهـور الثـوري.

رَسّام جِدَارية أكتوبر

حين نزل الرسام نفق باب الشرجي مع أصدقائه، ظَلَّ ينظر إلى جداري النفق التي تملؤها العبارات المخطوطة بعفوية، يبحث عن مكان حتى وجده في منتصفه، تاركاً رسامين أو ثلاثة يرسمون على جانبي جدار نفق باب الشرجي. شَمرَ عن ساعديه تحت قبة الليل البهيم والتي زينتها الألعاب النارية المنفلقة فوق رؤوسهُم وجمهرة المتظاهرين الذين يمرون كماء النهر الجاري من ربوة، يزيح الخوف والقلق من الذين يتربصون بهم خلف صبات الجسور الثلاثة. فسح له المجال وحدة مكافحة المسيل للدموع وساعده بالأمور اللوجستية. خطط الثائِر الملثم الذي رمزا له لثورة ٢٥ أكتوبر ومن خلفه المتظاهرون الحاملون للعلم العراقي، يحيط به صديقه الكاتب وزميله المسرحي وطلابه في معهد الفنون الجميلة من تشكيليين وموسيقيين، يساعدونه بطلي الجدار باللون الأبيض وحين يصعد الدرج الخشبي القديم يمسكون له علبة ألوان البلاستيكية الصغيرة، وكنت من الفريق المشارك حينها، فشعرت أني أقدم شيئا للثورة معنويا يمد الثوار بقوة الصمود كما مدني بقوة إرادة جديدة بإثبات ذاتي كعراقي

ومهندس ألبس قبعة بلاستيكية خاصة بالمهندسين والتي لم أرتدها منذ أن تخرجت قبل ١٤ سنة، حينها شعرت أنني أمارس عملي الذي لم أمارسه بسبب قاطعي جسور بغداد. أنظر بعيون الموسيقي الذي يحثه الرسام على طلي الأماكن العارية من اللون والمسرحي يصور أو يأتينا بالطعام، وأحد طلبته تركه يرسم المطعم التركي دون أن يوجه له أي ملاحظات حتى سأله أحد المتظاهرين المارين أن يضرب بفرشاته ليضع بصمته، أعطاها دون تردد كي يشعر بنفسه أنه دَقَّ طابوقة جديدة في بيت الوطن الجديد. نالَ التعب منه ومنا لكن حين وقفنا أمام جدارية أكتوبر والتقطنا صورة تذكارية شعرنا أننا كلنا رسامون بقوة ثورة الرسام على نفسه الذي دَوَّنَ كل من ساهم ولو بحمل سطل الألوان عند الإعلاميين. هكذا ثار رسام على نفسه بنكران ذاته وبقوة فرشاته دفع الثورة في حضن الأمل.

النائِم على رَصيف الحُرِّيَّة

وجد عشه بعد ضياع طويل، يحلم بوطن حر، محرر من كل القيود، لا ينزعج وهو نائم على رصيف في نفق باب الشرجي من هتافات الجماهير، وأبواق التوكتك، يغرق في قلب صوت العراقي الحر، أنظر له بفخر وبعزة وبكرامة أرجعها لنا مع انتفاضة زملائه المتظاهرين، عجب يلفني في دوامة الحرية التي لا تهدأ ولا تهجع، أشرب من حلمه اليقظ بعد عطش طويل يبّس شفتي روحي، لا أعرف؟... أتصور أنني في حلم وليس هو؟!. ترفرف روحه لضفة النصر كي تريح الأخرى الصابرة والواقفة بوجه دخان سجائر الشياطين، تأتيه أَمه اليقظة القلقة على بساط منسوج من القلق والخوف تترجاه:

- ارجع للبيت يمه أخاف عليك.

يبتسم بعينين مغمضتين:

- لا تخافي عليه إني بحضن الوطن نايم؛ جربايتي رصيف التحرير وبطانيتي من خيوط الحرير ومخدتي صبت التحرير.

تبقى لا تنام ويبقى في حلم اليقظة الذي سيغمض عيني أمه في بيت مليء بالعزة والكرامة.

شَهِيد شارِع الرشيد

لم يكن يرى سوى عيني الوطن الحزينتين، يتفجر قلبه بعنفوان الحياة التي يريد أن يجرها من فم غول العصر، يرافقه صديقه بنفس عنفوانه، لا خوف يراوده أو قلق يجعله يَتَرَدَّدُ ولو للحظة للاِنسِحاب من شارع الرشيد، يلوذ بأحد أعمدته ومن ورائه صديقه الممسك به كي لا يكون في مرمى رصاص القتلة، تسيل دموعه من دخان أنفاس فراخ التنانين الخائفة وهم يتقدمون بحذر نحو المتظاهرين الصامتين في وجوههم الملثمة خوفا. كلما سحبه رفيقه رجع وهو يرمي الحجارة أو بُطُل بيبسي كي يبعدها عن أرض الاعتصام السلمي. مَرت الدقائق وهو مع رفقائه في كر وفر لكن رصاصة من بندقية الغدر اخترقت صدره دفاعا عن وطن مثخن بجراحه لا يريده أن يعاني برصاصة أخرى، سقط في وسط شارع الرشيد وهو يرى سماء بغداد صافيه سابحة الغيوم فيها بهدوء، فأحس بطيران روحه فيها التي لا تموت، باقيه محلقة في ضمير أمة لا يموت. يبكي صديقه بعد أن حمله مع الثوار إلى توكتك لينقله بتكسي، أسرع صاحب التكسي العجوز بهم وعيونه تمطر على خديه ليقول لصديقه:

- شوف موبايله حتى تتصل بأهله.

نفش جيوبه فلم يجد سوى ربع دينار وجنسيته، صفق العجوز كفيه وسأل صديقه:

- ليش هذا بجيبه ربع (٢٥٠ دينار)؟!.

من وراء بكائه قال له صديقهُ:

- كلي ادفع كروتي لأنه ما عندي والربع أرجع بي.

عم الصمت في التكسي والشهيد بين ذراعي صديقه ويدا العجوز ترتجفان على المقود وهو يقول:

- هذا الشاب لا يملك سوى جنسية وربع دينار. راح يرجع الوطن للوطن بيكم.

أُم الغيرة تحتَ جِسر السنك

قفـزت بـكل هـمَّ حـين رأت ثائِـرا جريحـا تحـت جِـسر السـنك، تعـدو بجناحـين لا قدمـين، عزيمتهـا تنحنـي لهـا الجبال، قلبهـا يـضرب كـدرداب طبـل يـوم القيامـة في بغـداد الـذي ضرب بكفـي ثـوار أكتوبـر. تسـير عـلى حافـة الجِـسر التحتيـة، لا مـكان للخـوف في قلبهـا الـذي اختنـق مـن أنفاسـها الغيـورة عـلى جريـح ممـدد وتحتـه هاويـة ترميـه في دجلـة التـي تريـد أن تحضنـه، لكـن المسـعفة المـلاك بيديهـا أسـعفته حتـى غـارت دجلـة منهـا وجـرت بمياههـا هائجـة تغنـي في أعماقهـا:

- مـلاك الحريـة طيـب جـراح ثائـر تشريـن قبـل أن يسـقط في قلبـي المـليء بالْحَـسْرَةِ عليـه.

طـارت بـه إلى الضفـة الأخـرى، ضمـدت جراحـه، حملـوه وهـي تتبعـه بلهـاث أنفاسـها الـذي بـرد بفتـح عينـي الجريـح، ابتسـم وهـو ينظـر لهـا في التوكتـك كأنـه يشـكرها ولكنهـا لوحـت لـه بكفهـا الأبيـض كقلبهـا الأبيـض المـدرع بالشـجاعة لتقـول لأصدقائـه مـن وراء لثامهـا:

- اخذوا للمستشفى ولا تخلو يرجع.

اختفـت ابتسـامته وعاتبهـا بملامـح المقاتـل الـذي يـأبى تـرك المعركـة، خنقتهـا العَـبْرَةُ ومشـت في وسـط المتظاهريـن وهـم

يحيونهـا بصـوتٍ واحـد:
أم الغيرة.. أم الغيرة.. أم الغيرة..

بائع شاي في نّفَق باب الشرجي

جالس تعب من الهتافات والسير في وسط الناس ثم الاستقرار بجانب صديقي الرسام وهو يرسم جدارية أكتوبر، اشتهيت الشاي لكي أدخن سيجارة، التفت في وسط الجماهير التي تصدح حناجرها بالحرية، لم أجد، رجعت أتأمل صديقي يرسم أعظم وأنبل موقف رسمه في جوف نفق ساحة التحرير. فاجأني طفل في الثامنة أو التاسعة من عمره، ملابسه رثة وهو يقول لي:

- عمو جاي ابلاش.. أتريد.

بقيت ساكتا ومبحرا في بحر من كرم الفقراء الأغنياء بأنفسهم الغنية، لم أصدق فأجبته:

- بس احنه ستة وميصير ابلاش.

-حتى لو عمو ويصير ابلاش.

أنا لست في فيلم أو مشهد أسطوري من مسرحية بل أنا في نفق باب الشرجي خلفي الرسام ومن أمامي يسري نهر الحرية يسبح فيه العراقيون. كل هذا وهو مُصِرٌّ أن يعطيني شايا.

سألته:

- أنت منين؟.

- مو مهم.

أخـذت منـه السـتة أكـواب، لكـن دمعـة في عينـي ترقرقـت لكنهـا لم تكـن شـفقة عليـه بـل عـلى نفـسي التـي شـعرت ببخلهـا بالرغـم مـن الاعتقـاد بكرمهـا. خطـا بضـع خطـوات لكننـي ناديتـه وأنـا مُـصِرٌّ:

-أنت منين؟.

التفت بابتسامة طفل ساخر لا يعرف الخوف:

- أني من ساحة التحرير.

رشـفت شـايه المـليء بالكـرم ودمعتـي ابتلعتهـا مقلتـي، وقلـت لنفـسي:

-الله اكبر يا عراق شكد بيك أحرار.

عَنقَاء ساحة التحرير

في صباح خريف ال ٢٥ من تشرين الغائم بغيوم خريفه الرمادية، جالس ذلك الشاب في بيته صامت، خَلا من أهله المنتفضين في ساحة التحرير. البؤس والإحباط طوقه بدخان الشَّماتَة، يفرك يديه، ترمش عيناه، يزفر نَّفَس الْحَسْرَةِ على الشباب المقتولين والجرحى منهم، صم أذنيه من مذيع الأخبار الذي ملأه بالحزن وطرد الخوف من قلبه، يتلمس بكفيه برودة كرسيه المدولب، سابحا في هواء ثقيل مليء بأنفاس الصمت السقيم. دفع بكفيه عجلتي كرسيه، موليا ظهره للتلفزيون، خارجا إلى الشارع الفارغ من الْمَارَّةَ، يرى فتيل الدخان الأسود، ويسمع هتافات المنتفضين التي شحذت شجاعته واستفزت حماسته، ينظر لبنطلونه الفارغ من رِّجْلَيْه، طوى قماش البنطلون تحت فخذيه وانطلق بضربه عجلات كرسيه المدولب بقوة ذراعيه. لا يشعر سوى بهواء الخريف البارد يهيج جمر نار قلبه التي سخنت إرادته المقموعة بقطع رِّجْلَيْه، قليل من الْمَارَّةَ يسألونه إلى أين؟ وغيرهم يريدون مساعدته بدفع كرسيه لكنه صامت لا يجيبهم ويرفض بنظرة غضب من عينيه لكل من يدنو منه يريد دفعه بدلا من ذراعيه. الدقائق تلو الأخرى لم

يشعر بتعب فيها حتى وصل ساحة التحرير بلا رجْلَيْن لكنه يملك الوجود الذاتي لنفسه التي استنشقت هواء الحرية الذي فتح نوافذ غرفة العبودية الذاتية بإعاقة جاءته من انفجار سيارة مفخخة قبل سنوات مضت لكنه رفع العلم العراقي بيده وهو يهتف:

- أريد وطن.. أريد وطن.

لم يطلب أطراف اصطناعية أو معونة ذاتيه تساعده على تجاوز إعاقته بل وطنا برِّجْلَيْنِ غير كسيحتين، يعاني من سراق رّجْلَيْ الحرية، يعدو في طريق يبلع المتعصبين والطائفيين. لم يشعر بكرسيه بل برجْلَيْ طائر حُر لا مست أرض ساحة التحرير وجناحين من ريش أبيض يلاعبهما في وجه المتربصين لبغداد. زَادَ المتظاهرين إصرار وحماسا وعزة وكبرياء حينما رأوه يهتف من كرسي الإعاقة، حتى سقط أحد الشباب مختنقا بدخان قنبلة مسيلة للدموع، سحب قوطية البيبسي من سلة في ظهر كرسيه، نهض المتألم وأحنى ظهره له وهو يسكب على وجهه البيبسي كي يستعيد تنفسه وبصره، شكره الشاب:

- اشكرك أخويه ورحم الله والديك.

تركه يركض لمعاودة الكرة مرة ثانية في مواجهة جديدة. بكى في كرسيه لا لشيء بل لأنه لم ير الإعاقة في عيني من ساعده، بل رآه بعيني شاب طبيعي مثله بقدمين فيما

مـضى. سـحر سـاحة التحريـر أنهـا تحتضـن الأحـرار ولا ينظـر كل منهـم للآخـر إلا بمـدى صرخـة الحـر فيـه. شـعر أنـه نهـض مــن رمــاد الســنين كطائــر العنقــاء مليئــا بــروح طائــر حــر يخفـق بجناحيـه فـوق غيـوم الدخـان في نفسـه التـي هتفـت وصرخـت بأقـوى مـا لديهـا بوجـوه سراق الأحـلام المنزعجـين:

- عاش العراق.. عاش العراق.. عاش العراق..

طائِر جدارية الحُرِّيَّة

خـرج مـن بيتـه يخطـو بخطـوات لا رجفـة فيهـا، ينظـر بعينـين فيهـما دمعـة حـارة لا تقفـز عـلى خـده مـن فـرط كبريائـه وعزتـه عـلى وطـن لم يقتـل بعـد حتـى يـذرف الدمعـة عليـه، تلمـع في مقلتيـه بغضـب صرخـة مكبوتـة، يشـعر بعروقه تفـور كأن نـاراً ألهبتهـا، يقبـض عـلى علـم العـراق بحرقـة في قبضتـه الفتيـة، صمـت ينـم عـن حكمـة لا يعـرف مـن أيـن أتتـه؟! أطـرت ثورتـه السـلمية بوجـه مـن يضحكـون عليـه مـما يمارسـه مـن لعـب البوبجـي أو البنطلـون الطافـر أو قصـة شـعره، ليفاجـئ الـسراق الذيـن سرقـوا حلمـه ووطنـه بقـوة عنفـوان إرادتـه، فضـاء حلمـه الـذي بـدأ يتـلاشى في ضبـاب دخـان سـيجارهم الكـوبي المـبروم عـلى أوراك العـذارى. يـسرع بـين الطرقـات مـع أقرانـه، يريـد أن يطـير لا أن يسـير، فلـم تكفـه الخطـوات كي يبلـغ سـاحة التحريـر في ذلـك النهـار مـن تشريـن الأول حيـث سـيكون خريـف سراق الأحـلام. هتـف مـع الهاتفـين وهـو عـاري الصـدر وملثـم بعلـم العـراق ليـس خوفـا بـل وجهـا موحـدا ضـد كل الوجـوه المنتميـة لألـوان ذات غايات عقائديـة وقوميـة وفردانيـة. لكـن فجـأة بـدأ الـضرب والتفريـق للتظاهـرة، يتراجـع مـع المتراجعـين ويهـب مـع خطـوات إخوانـه

الصادحة أصواتهم بوجه سراق الأحلام كسرب صقور يمر في مدينة خربة. جحظت عيناه، رجف قلبه للحظة، وهو يقول:

- يضربون طلقات علينه، ليش؟!!.

اختبأ مع المتظاهرين بعد أن تفرقوا في حديقة الأمه وساحة الطيران، ازداد إصرارا على عدم التراجع، فهو اللامنتمي سوى لنخيل العراق وشمسها التي ألهبت قلبه الشجاعة ومياه دجله التي سقت روحه العطشة بصرخة أطلقها بوجه سراق الأحلام، يسقط الجريح والقتيل من حوله وهو يلوذ بصبة كونكريتيه، مشهد تراجيدي لم يره سوى في الأفلام، يعتصره الألم وهو محبوس في قفص الخوف لكن شرارة الذات الثورية فيه جعلت من قبضته مطرقة حطم بها حديد قفصه كما في جدارية الحرية التي ينظر للقفص فيها كيف خلعت بابه وطار الحمام الذي نشر السلام والحرية فوق شعب الرافدين. وقف بكل جرأة وشجاعة وهو يهتف من وراء كلمة الله أكبر بأنفاسه الملتهبة:

- وينك يالقناص.. وينك يالقناص.. إني هنا وأريد وطنا.

رمشت عيناه، ورأسه على إسفلت ساحة الطيران، انسلخت روحه بهدوء من جسده المنهك بالضرب والجراح، طار فوق المتظاهرين مع سرب المستشهدين، يرى جسده

محمـولا عـلى أكـف الأحـرار الشـبان، يـرى القناصـة الملثمين ولا يـرون طائـر الحريـة، حـط عـلى جداريـة الحريـة لفائـق حسـن وتحقـق الحلـم بعـد سـنين طـوال مـن مسـح طيـور الجداريـة التـي كانـت تبحـث عـن مـكان، ليجـد مكانـه طائـرا حـرا خالدا ينقـر في ضمائـر مـن أطلقـوا الرصـاص والذيـن وراءهـم، لـن ينامـوا أو يسـتريحوا مـا دام الشـاب العراقـي بوجـوده المـادي صـوت الحريـة وبعـد استشـهاده هـو طائـر جداريـة الحريـة.

ميلاد وحسن أبو التوكتك

عاشت نصف عمرها في لندن وتصورت أنها انسلخت من جلدة وطنها الذي لم يعرف الاستقرار بعد سقوط النظام، سبعة عشر سنة في الغربة لم تفكر يوما بالرجوع إلى بغداد، لكن ما يحصل في ساحة التحرير شيئا من المعجزة التي تحققت بقوة شباب أكتوبر، تتابع على مواقع التواصل الاجتماعي ما يحدث من فرح وحزن على الشهداء، بكت حين رأت شبابا يقتلون بدخانيات السلطة الغاشمة وفرحت حين شعرت أن لها وطنا توحد بقوة إرادة شعب الكل ظن أنه مات. يوم بعد يوم وأسبوع بعد أسبوع حتى قررت أن تزور بغداد بعد سنوات طوال ستحط ترحالها في حضن العراق الدافئ. حزمت حقائبها وهي متلهفة لشم هواء بغداد الحرة. ارتجفت حين نادوا على رحلتها في تركيا إلى بغداد، لم تحملها قدماها لركوب الطائرة بل طارت روحها قبل جسدها في أعالي الغيوم لتحط في مطار بغداد. عيناها تصب الدمع وهي تشم هواء معركة الحرية التي جذبتها إلى ساحة التحرير في نفس اليوم بعد أن تركت حقائبها في بيت جدها، توسلوا لها بأن تبقى لترتاح لكنها رفضت. لا تعرف كيف وصلت لساحة الخلاني، صامته ومذهولة من

صخب حياة الثوار المليئة بالحب والتعاون والتفاني من أجل القضية. كلما أرادت أن توقف أبا توكتك مَرَّ بجانبها مسرعاً، كانت أمنيتها أن تركب بهذا التوكتك العجيب وما يحمله من غيرة وملاحم في أرض التحرير. فجأة توقف أبو توكتك ونادى عليها:

-اصعدي اوصلج لتحرير.

بقيت واقفه متحجرة على خطوة من تحقيق أمنيتها، صرخ بها:

- اصعدي أبلاش.. والله أبلاش.

الحلم حقيقة وما سمعته عن غيرة أبطال التوكتك ليس كما تراه وتشعر به حتى اقشعر بدنها، فخطت ببطء وصعدت وهدير التوكتك يشق الحشود كالقارب في النهر. سألته عن اسمه فقال لها:

-أني أسمي حسن.

-حسن أريدك وياي اتفرني بساحة التحرير.

-مو تدللين بس إذا سقطوا قتلى وجرحى تعذريني تره أعوفج.

قلبها خفق بشدة مما سمعته وما تشمه من بقايا الدخان المسيل للدموع، لكن رؤيتها الوجوه السمراء المليئة بالوطنية والفداء بثت فيها الطمأنينة ومسحت من ذاتها صور الوجوه اللندنية الشاحبة البيضاء. أنزلها

في نفق باب الشرجي المزين برسوم الرسامين الثوريين على جانبيه تصور بكاميرتها وجه شهيد وصرخة حرة وتوكتك له جناحي ملاك، نزلت من التوكتك إلى ما تحت نصب الحرية حيث تجولت في خيام الثوريين بشتى ألوانهم من مفكرين وإعلامين وناس مجاهدين يخدمون الثوار بالأكل والشرب وتنظيف المكان بالمكنسة التي أمسكتها وكنسة بقايا طعام وأوساخ ورماد. تملكها شعور غاب عنها سنين بعد ولادة عسيرة ولدت ميلاد من جديد في قلب ساحة التحرير. حينما نزلت من التوكتك لم يبق في انتظارها بل قال لها:

- بعد ساعة تلكيني كدام النصب لأنه لازم أنقل الطعام والناس وغيرها.

وبالفعل حسن وجدته واقفا كما وعدها، حين ركبت طار معها إلى الجزرة على ضفاف دجلة وما تسمى بالرملة أيضاً حيث أخبرها أنها جبهة خطرة وسوف ينتظرها لدقائق ويرجعها لقلب التحرير. لم يعاملها غريب كهذه المعاملة كأخت له من خوف عليها وعدم التفرس في أنوثتها ولا حتى من اللندنين بل حسن من خاف عليها وصان نظراته في عينيها، أحبت الوطن عندما غرقت بعيني حسن البغدادي الذي بان الفقر على هيئته لكنه يحمل كنز ذات لا يمتلكها سكان مدينة الضباب. نزلت إلى ما خلف

المرابطين على ضفاف دجله وحسن واقف بجانبها تنظر لجيل من شبان لا يهابون الموت، تسمع ضحكهم وترى الفرح في عيونهم وتدرك أنهم أمل العراق الذي أرجعها بعد غربة طويلة. صورت تلك الوجوه الثائرة الضاحكة بوجه الموت والراقصة على كتف دجلة. حينما انتبهت إلى نافذة التوكتك الأمامية المتضررة، سألت حسن وهي تشير بأصبعها على نافذة توكتكه:

- من ضرب التوكتك مالتك؟.

قالها بحزن ومرارة:

- الشغب ضربوه.

- زين تقبل واحد يتبرعلك حتى تصلحه.

أراد الهروب منها بلف رقبته يمينا ويسارا حتى قال لها بعبرة خنقته:

- أني استحي ما أخذ أفلوس من أحد.

تزلزل كيانها وارتعشت روحها حين رأته هاربا بعينيه عنها، رأت نكران ذات وعزة نفس وحب وطن يفتديه بقوته اليومي وروحه. لفت المال وقبضت على ورقه بقبضتها الرقيقة ووضعته في جيبه. لم ينظر لها بل ركب خلف مقود توكتكه وهي من ورائه، دمعة وابتسامة تنفست هواء بغداد فيما بينهما والتوكتك يأخذها على بساط الحرية وهي تقول لنفسها المفتخرة بوطنها الجديد:

-هـواي عدنـه مثـل حسـن لذلـك رجـع الوطـن مثـل مـا جـان قبـل الفـتن.

خبز أم العباية

أفـواه قلـوب شـباب ثـورة ٢٥ أكتوبـر جائعـة قبـل أفـواه وجوههـم الثوريـة المليئـة بالعـزة والكرامـة، يتمرغـون بـتراب أقدامهـم المهرولـة لهـدم حصـون الساسـة العفنـة، يستنشـقون عطـر الأبطـال مـن دخـان بنـادق أعلنـت خُذلانَهـا تحـت أصابع أسـيادها، يفـور دمهـم العراقـي في عروقهـم لتحـرق وجـوه المختبئـين وراء لثامهـم الأسـود، يرقصـون عـلى أكتـاف المـوت في سـاحة الحريـة التـي تطـرب لضربـات أقدامهـم عـلى صدرهـا، يضحكـون بعـد كل جولـة رابحـة لهـم، يجلسـون بجـوار تنـور الأم والجـدة ينتظـرون رغيـف خبزهـا المعجـون بدمـوع عينيهـا والناضـج بنـيران تنـور قلبهـا، يقضمـون بأفـواه طاهـرة خبزهـا، يتلـذذون طعمـه تحـت ألسـنتهم التـي وحـدت العـراق الأم بعـد طائفيـة مـرت بـه في أروقـة الساسـة المظلمـة. يحيطـون بـأم العبايـة التـي لم تجلـس في بيتهـا تنـدب حضها بل تسـلحت بـإرادة العراقيـة وركضـت لتكـون درعـا لأبنهـا وبنتهـا وأخيهـا وزوجهـا وكل مـن وقـف في سـاحة التحريـر يـصرخ بالحريـة لوطـن ثخنـت جراحـه مـن طعنـات غـدر العمالـة. تقـف أم العبايـة بجـوار بنتهـا التـي ولدتهـا ولم تلدهـا, تعلمهـا خبـز رغيـف المقاتـل في سـاحة الوغـى، تبتسـم ليـد البنـت الناعمـة

وأظافرها المبرودة بعناية وهي تقول لها:

- لا تستحين، تخرب مرة واثنين حتى تتعلمين، هاي من محاسن الثورة أعلمج الخبز إلى مو بس ايسد جوع اخوتج، هاي خبزت كرامة قبل متكون خبزت بيت طيبة.

توافدت بنات الجيل الجديد حول أم العباية يتعلمنَ منها صنعة الخبز ليس في بيت بل في قلب ثورة مستعر كالتنور لا تحرق ناره سوى من يدنس خبزه الذي نبت في أرض العراق الخصبة وشربَ من مياه نهريه ودموع السماء المنهمرة في ليالي العراق الغائمة التي توقفت اليوم عن البكاء بعيني المقهور ليكونا عيني المحرر من قيود الطائفيين والسارقين والقتلة المارقين. تنثر أم العباية مع بناتها الثوريات في ساحة التحرير أرغفة الخبز الحارة، يتلقفها أبطال الحرية بكل فرح الذي قشع لحظات الانكسار بين شوطي صولة الفرسان المسالمين. كفاها ملطختان بالعجين وملابسها لونت ببياض الطحين، رفعتهما بوجه السماء تدعو:

- بجاه النبي وآل بيته تقشع هذه الغمه عنا وتحفظ شبابنه وبناتنه من كل شر.

ثائِرة التحرير

مكنسة ومكرفة صغيرة هذا سلاحها في معركة تدور ما بين الأحرار والعبيد، صامتة تحت أزيز الرصاص ودخان الموت البطيء، مسخمة الوجه بكنسها لسواد رماد الطغاة، عيناها لا تدمعان وقلبها يخشع وضميرها حر في سماء بغداد الغائمة، تطير بلا جناحين وراء مخلفات القتلة المارقين، تحط بمكنستها ومكرفتها وأكياسها، تكنس رماد ضمائرهم المتناثرة تحت أقدام الأحرار السلميين، تضعها في أكياس سوداء كقلوبهم، تراقب وتتأمل من حولها لتقول لذات الأنثى العراقية الثائرة:

-لا تجزعي من كنس الرماد فقط بل سنكنس القتلة والسراق ونضعهم في مزبلة التأريخ.

تمر الأيام والأسابيع وتبقى واقفة في قلب ثورة ٢٥ أكتوبر، غير منتظرة تصفيقا أو مديحا بل تنظر في عيني العراق الحزين الذي لاحت ابتسامة على ثغره حين نظر إليها مع الثوار الآخرين لكنها لم تبتسم بل قالت له:

- ابتسامتي في قلبي مكبوتة ودمعتي سجينة في مقلتي لأني اليوم رأيت وجه شهيد.

نزلت دمعة على خد العراق وهو يُسمعها:

- ابتسامتي حين رأيت الشهيد في إرادتك ودمعتي حين رأيت الحرة الثائرة فيكِ.

تكنس وتكنس بلا تعب ولا ملل والصمت الحكيم ثقب عين الحقيقة وأخرس كل الذين قالوا إن المرأة العراقية تعيش بين المطبخ والسرير، لكنها اليوم تجمع زبالة القاتلين من خراطيش بنادقهم وسخام دخانياتهم كي ترميها في أفواههم حين يحين النصر القريب.

صُنْدوق 25 أكتوبر

العين لا ترمش والقلب يحلق عاليا في سماء العزة والضمير يسجد على ركبتيه خشوعا لصندوق موشح بالعلم العراقي، مُثبت تحت نصب الحرية بأيدي أحرار ٢٥ أكتوبر، لم ينسوا أن هناك محتاجين فيما بينهم يساندونهم في التظاهر على الظلم والطغيان، لم يمد أحد يده على مفتاحه المُلقى على ظهر صندوق الأحرار سوى المحتاج الذي لا يمُن عليه أحد ولو بنظرة عين خاطفة تشعره بالذل والمهانة. قمعوا العبودية في قلب الإنسان أينما وجد على وجه الكرة الأرضية في صندوق الأحرار، وحطموا كبرياء السراق في الضفة الأخرى، الحائرين والغاضبين والمقموعين بفعلة رمي المال في الصندوق الذي لم يسرقه أحد، فها قد وصلت الرسالة بأن العراقيين لم يسرقوا بلدهم بل بنوا وعمروا وهم في نار الثورة التي تحرق قلوب وضمائر السارقين، يتساقط المال في جوف الصندوق وتأخذ اليد منه بعزة وكرامة وهو يقول لهم:

- خذوا هذا من خيركم.

العراق اليوم مرصوص بكل طوائفه وقومياته وأديانه، ينتج قيما سامية وبطولات لم تسطر في كتب التأريخ حتى

أصبح عنوان التاريخ اليوم ثورة ٢٥ أكتوبر بقلم منقع بدم الشهيد وعرق المجاهدين ودمعة العراقية الصامدة.

سياح الجَنوب في سَاحة الصمود

تنحني الهامات وتبتهج الثغور بابتسامة النصر حين ترى نساء متلفعات بالسواد، حدادا على وطن لم يعد يتيما بعد أن نهض أبناؤه من ركام الطائفية والصراع المذهبي السياسي الذي كان يراهن عليه سكان الخضراء، تتعصب الأم والجدة بالعلم العراقي الذي غطى أكتافهن بعلم عراقي آخر حتى أصبحن بهوية واحدة وهي هوية العراق الذي لا يندثر ببخار طبخة سياسية ترمينا في دهليز آخر حتى بقي ساسة الصُدفة يصرخون فيه وحدهم. يعجنن الأرز المطحون ويدلقنه على صفيحة ساخنه حتى ينضج السياح الذي يسد جوع المتظاهرين كي يبقوا بوقود معنوي أكثر منه وقود طعام تمتصه المعدة، ففي جلوسهن في ساحة التحرير يدفع بعجلة ثورة أكتوبر إلى نور غد لا غبار لعجلات حمل الموتى فيه، هيبتهن وحنانهن وسد مكان الأم والجدة في قلوب الباقين في ساحة الصمود لأيام، قوى العزيمة وأطال الصبر. عطاء لا مثيل له في زمن يأخذ ولا يعطي بشراهة سكين تقطع لحم الإنسان كي يرضى أنانيته التي استعبدته. كلما أعطت سياحا ازدادت زهوا وألقاً في عيون الثائرين وترسخ عندهم يقين أنهم منتصرون بقوة

المـرأة العميقـة الجـذور مـن سـومر ليومنـا هـذا المجيـد، والثائر المتـوج بتـاج عـزة النفـس الـذي لا يـرضى أن يكـون مسـلوب الإرادة بيـد قـوى تسرقـه وتقتلـه وتعذبـه وترهبه ليبقى سـاكتا. بـالأم والجـدة نرفـع رؤوسـنا عاليـا فـوق غيـوم دخـان غضـب الجلاديـن، نـصرخ بأننـا لسـنا وحدنـا في سـاحة التحريـر التـي لا تعـرف الهـدوء والسـكينة مـا دام العبـور للضفـة الأخـرى مرهونـا بصمودنـا الـذي تصلـب بقـوة الأم والجـدة المتوشـحات بالعلـم العراقـي والسـياح يلامـس شـفاهنا وتذوقـه ألسـنتنا وتمتصـه معدتنـا، فنسـتريح بعدهـا، ننظـر بعيـون المـرأة التـي لا تملـك سـوى أرز مطحـون وصفيحـة معدنيـة، لم تبخـل بهـا عـلى الوطـن، تتسـارع أقدامنـا ركضـا عـلى أرض الحريـة وتسـبح أذرعنـا في هوائهـا، نقـترب مـن دجلـة ومـن ورائنا نسـاء السـياح يهلهلـن لعبورهـا في غـد قريـب.

نَوارس الحُرِّيَّة

دخلـوا للمـدارس والجامعـات، تجمعـوا، الصمـت يلفهـم حتـى صرخـوا بهجرتهـم إلى سـاحة التحريـر حيـث الأحـرار ينادونهـم، سـبقوا معلميهـم وأسـاتذتهم إلى حيـث الحريـة تضـج بهتـاف كلمـة كلا للعبوديـة، تعلموهـا حـين قَرَءُوهَـا في منهجهـم، لكـن لم يشـموا هواءها ولم يشـعروا بلمسـات السـماء في غيومهـا الفرحـة ليعـبروا إلى إخوانهـم في صرح الحريـة حيـث نصـب الحريـة الـذي نحتـه جـواد سـليم ولكنـه لم يـره بـأم عينيـه منتصبـا وشـامخا في سـماء بغـداد ليسـمع وهـو في العـالم الآخـر أن جداريتـه أحياهـا شـباب أكتوبـر، تجـذب كل ثائـر حـر. سـدوا الطـرق بأعدادهـم التـي تشـبه أسراب النـوارس في موسـم الهجـرة، هتفـوا بقـوة كي لا يشـعروا شـباب تشريـن أنهُـم وحدهُـم في قلـب التحريـر. القلـم خـطَ كلمـة الحريـة لهـا صـوت ينطلـق مـن فـم الحريـة، قويـا يهـز عـروش الظالمـين والدفـتر رسـم عليـه العلـم العراقـي، حتـى أصبحـوا مـن شـباب أكتوبـر باندماجهـم في نسـيج ثورتهـم التـي لم ولـن تمـوت تحت أزيـز التهديـد والرصـاص. هاجـروا إلى سـاحة الحريـة حيـث هنـاك الـدرس الأول: كيـف تتعلـم الحريـة في وسـط الأحـرار؟ بعدهـا سـتخطو في طريـق العلـم وأنـت حـر لا عبـد تسـوقك

سـياط المُسـتعبدين في هاويـة المـوت البطـيء. نـوارس الحريـة حطـت ترحالهـا ولـن تغـادر سـاحة التحريـر.

الحُب في عُشّ الحُرِّيَّة

يومان وهي جالسة تنتظر خطيبها في بيت أهلها، قلقة وخائفة على روح قلبها في ساحة التحرير، كلما تخطت عتبة الباب تريد أن تخرج يمسك بها صوت أمها أن لا تذهب وتتركها مع أبيها الذي يصرخ خوفا عليها من أزيز الرصاص والدخان المسيل للدموع، ترجع بقوة العاطفة التي تجرها لحضن والديها لكنها عليلة بخيالات حبيبها وهو عاري الصدر في ساحة الحرية بقلب مدرع بالشجاعة. من كثر ما اتصلت استحت من نفسها فلم تتصل به طيلة النهار حتى هبط الليل بردائه المقدس الأسود، حداداً على من سقطوا في قلب جنة الطيور المحلقة في سماء الحرية، لم ولن تبكي على فراقه إذ تراه أسيرا بين يدي ثورة تشرين، لا سجن فيه بل قضبانه من نسجته دقات قلب شباب تشرين حراب منغرسة في ضمائر سراق الأحلام. أكثر من سنة وهما مخطوبان ولم يستطع الزواج بها بسبب جيوبه التي أفرغها سراق بلاد السواد، كلما نظرت، وهي جالسة في حديقة بيتها، تتخيله جالسا على الكرسي المقابل لها في الأيام الماضية يفيض العجز من روحه والحسرة تلمع قهرا في مقلتيه لاحتضانها في عش الزوجية. صامتة لكن قلبها

يفـور وإرادتهـا تحثهـا عـلى النهـوض برمـي عاطفتهـا جانبـا. وقفـت، مشـت إلى بـاب البيـت، فتحتهـا وهـي في غيبوبـة الشـوق لـروح قلبهـا، مـن خطـوات بطيئـة إلى هرولـة خفيفـة، لتتسـارع قدماهـا ركضـا في الحـي، خروجـا إلى الشـارع الرئيـسي الـذي لم تجـد فيـه سـوى توكتـك وقـف لهـا يناديهـا:

- أصعدي أني رايح الساحة التحرير.

صعـدت وحدهـا معـه بـلا خـوف، لكـن الـذي أرعبهـا دمـاء لطخـت أرضيـة التوكتـك وأجـزاء مـن مقاعـده الجلديـة، نظـر لهـا وهـو يقـول:

- لا تخافي أختي هذا دم الأبطال.

انطلـق بسرعـة حتـى قذفهـا صاحـب الغـيرة في قلـب سـاحة التحريـر التـي خفـت فيهـا الهتـاف واسـتلقى عـلى أرضهـا المتظاهـرون المتعبـون في منتصـف ليلهـا المنـير بأضـواء شـوارعها التـي لا تنـام. تبحـث عـن حبيبهـا الـذي لمحهـا مـن بعيـد لكنـه لم يصـدق بأنهـا هـي، لم ينادهـا، اقـترب منهـا خطـوة بعـد أخـرى، لكزهـا في كتفهـا، التفتـت لـه، لم تجـد نفسـها إلا وهـي في حضنـه وهـو يقـول لهـا:

- هسه كملت ثورتنه بيجن.

مسـح دموعهـا، أمسـك يدهـا، جلسـا أمـام نصـب الحريـة، يداعبهـما نسـيم الليـل البـارد، كفهـا بكفـه، قلبـان في قلـب اتحـدا، ليقـول لهـا:

- أكـثر مـن سـنة وأحنـه انريـد عـش يحتضنـه وهـاي اللـه حقـق أمنيتنـه أن يكـون حبنـه في..

قاطعته قائلة:

- عش ساحة التحرير.

شَرِيط الثوار الأبيض

تصنع الحرية حين تهدم صنم الخوف في ذاتك، من بعدها يعلو صوت الروح السجينة من وراء وهم قضبان العبودية، تردم الحفر في طريق الحرية الخائف من التعثر بها بحجارة صنم الخوف المهدم بمطرقة الإرادة الحديدية، لا تنام عين الذات ما دامت الروح محلقة في سماء الحرية، جسوران غير خائفان في مواجهة رصاص المندسين، هوية رجعت لجيب صاحبها بعدما سرقها سارق الخضراء اللعين، واقف لا خوف، وإرادة قوية وريح تغيير تهب من أنفاس الثائر الجسور الذي رابط على رؤوس الجسور لكن حين سمع وهو ابن التحرير بذي قار والنجف تذبح شبابهم كلاب عملاء البلاد، لم يبك ولم يضرب الصدر غضبا ولم يمل في حضن أمه يولول بل اصطف مع شباب التحرير كشريط في قلبها مرتدين الأكفان الملطخة بدم الثائر, على ظهورهم مستلقين، شموع بخط مستقيم من جهة أرجلهم تنير طريق الفدائيين، ليقولوا للذين يتربصون بهم من وراء ضفة الشر:

- نحن جيل لا يهاب الكفن ولا يرتعش لمشهد تابوت ولا يرتعد من دفان ينزله في قبر.

رسالة واضحة من شريط مرصوف بشباب أكتوبر الأحياء الذين لم تكن وقفتهم على أرجلهم وقفة حداد بل ناموا على ظهورهم وارتدوا الأكفان الملطخة بدم ليكونوا موكب من مشاريع استشهاد سبقوهم إخوانهم من ذي قار والنجف فهم في لباس واحد لا يخيفهم ولكن يخيف الأعداء ببياضه الناصع الذي يعمي عيونهم وشمعة تحرق ذاتهم المجرمة. صامتين لا يتكلمون لدقائق عديدة فالمشهد تكلم عن نفسه بلسان ثائر سلمي لا يحب إراقة الدم لكنه لا يهاب رصاص الغدر ليس استرخاصا لدمه؛ بل لأنه يقف بينهم وبين صدر العراق الجريح، فكلما سقط شاب ثوري سلمي بقي العراق واقفا، فهو درعهُ ودرس للعالم أجمع أن كيف تدافع عن بلدك بسلميتك دون الانجرار لهاوية الإجرام. شريط لكل واحد منهم له حكاية وقصة ورواية كلها انصهرت في بوتقة حب الوطن، لا ينظرون للوراء ولكنهم يتطلعون للأمام حيث الفجر لاح والشمس المحجوبة لم يبق منها سوى غيمة عابرة ومن بعدها ستنير الأرض وتطهر النفس وتحلق الروح في سماء ذات لا تعرف سوى كلمة واحدة تتردد على السن شريط الثوار الأبيض:

- الحرية.. الحرية.. الحرية..

يبتسم العراق الآن وسيضحك ساخراً من أعدائه الملونين بجلود الأفاعي ومن ثم سيبكي على شباب ثورة تشرين،

سيجفف دموعه ويقول في ذات الحر العراقي:

- لم يموتوا بل لازالوا درعي الذي سيحميني من غزاة اليوم والغد.

شريط يعبر عن الجود بالنفس بقوة عقيدة حب الوطن، لا أرى وجوها بل أجسادا حية بأكفان وشمعة تدمع على شهيد سقط في الجنوب، لكنه في ذاكرة العراق، سيخيف كل سياسي جالس في كرسيه، لا يعرف سوى الحيرة والخوف. ستهدم عروشكم بقوة أرواح الشهداء الخالدة وقبضة شباب الأكفان الممددين على شكل شريط أبيض، أسمعهم وأنا واقف من خلفهم يردد الثائر فيهم:

- يوم العزاء انقضى وأتى يوم الحساب لثلة فاسدة، لا تتهاونوا ولا ترجعوا فما هي إلا خطوات قصيرة ويتحقق الانتصار.

شَهيدة في عين دِجلة

لم تبق في ساحة التحرير كأغلب الفتيات العاملات خلف خطوط المواجهة مع قوات مكافحة الشعب، جامحة في تفكيرها وثائرة لا تعرف غير طريق المواجهة مع شباب أكتوبر، الخوف منزوع من بين ثنايا قلبها الجسور، هادئة كزهرة في حقل؛ لكنها صارخة في ساحة الوغى كمقاتلٍ بين نيران الرصاص القاتل، لا تعرف الاستسلام ولا التراجع مهما نصحها ثائِر أو أم أو أخت لها في ساحة التظاهرات. فتاة لم تر سوى الظلمة في ريعان شبابها الذي تراه يذوي في بستان الأحلام بعدما قتل الساسة أحلامها، حتى رجعت أحلامها من مقبرة الأحلام المنسية حين رأت نور الحلم الضائع تتشكل ملامحه في ساحة الحرية، لم تقعد تنتظر أن يأتي حقها إليها بل كانت في الصف الأمامي تطالب به. ترى الشباب يسقطون متأثرين برصاص الغادرين وغازات القنابل المسيلة للدموع حتى سقطت أكثر من مرة مغمى عليها. حملت الجرحى وبكت على القتلى، تلطخ كفاها بدماء الشهداء وشمت رائحة العنبر يتطاير من دمائهُم الزكية، لم تتردد لحظة بأن تكون جزءا من نور الغد الذي سيقتل خفافيش الأمس واليوم، نورها في عينيها وفي قلبها

وفي ضميرها الصارخ بكلمات الثورة:

- نازلة أخذ حقي.

في لحظات الهدوء النسبي بين المواجهات المتلاحقة فيما بينهُم ومكافحة الشعب تتأمل دجلة كأن مياهها تجري في ذاتها، جارفة البؤس والإحباط والفشل إلى مصب النفايات. تتطهر على ضفافها كلما أرادت إراحة روحها التواقة في قلب مياه دجلة الباردة كي تغترف منها العنفوان كلما خبا فيها، والحماسة كلما خفت ضوؤها فيها ومن ثم العيش في أعماقها حيث الخلود الأبدي. تنظر للسماء فترى النوارس البيضاء تحوم على ضفاف دجلة فتحسدها على مملكتها التي من أجلها خرجت كي تحررها من الغزاة. تدرك أن دجلة تنظر لها بعين الأم التي لم يتركها أبناؤها تصرخ بصمت في أعماق قلبها الجريح، تسمعها تقول لها:

- أنتِ المقاتلة المدافعة عن مملكتي مع أبطال التحرير.

تبتسم وتنهض لتعود إلى مواجهة الشغب ما وراء الصبات الكونكريتية مع إخوتها الذين لم ينظروا لها بعين الشهوة بل بعين البطلة التي أنستهم وبأن هناك جنسين للبشرية، غريزة حب الوطن تغلبت على الغريزة الحيوانية الجنسية، رفعت راية العراق في كفها الودود الناعم المسود من دخانيات المختبئين وراء جدار أصم لا يعرفون سوى صد المتظاهرين. يتمكن منها النعاس فترجع لما وراء نصب

الحريــة تســتلقي في خيمــة وتغــرق في حلــم عبــور جــسر الجمهوريــة ومــن تحتهــا دجلــة تناديهــا:

- أنتِ شعلة الوجود ونور الحياة في قلب ثورة الصمود.

فتحـت عينيهـا وخرجـت مـن الخيمـة وإذا بهـا تأخـذ نفسـا عميقـا مـن هـواء الحريـة، شربـت الشـاي والتحقـت بخـط المواجهــة مــع أصدقائهــا وأخوتهــا، شــعرت أنهــا ســتطير في حضـن دجلـة الجـاري بتاريـخ ثقيـل مـن الجثـث والـورود، لم تشـعر بالخـوف بـل طـردت مـن تفكيرهـا فكـرة الرحيـل الأبدي مـع تمنيهـا لنفسـها بـأن تستشـهد في سـاحة التحريـر حيـث الأحـرار هـم مـن يزفونهـا إلى مثواهـا الأخـير. اجتاحتهـا رغبـة في البـكاء لكنهـا حبسـت دموعهـا كي لا يراهـا الرفـاق. قفـزت دمعـة مـن عينهـا وهـي سـاقطة عـلى الأرض وقنبلـة الدخـان في رأسـها، ومـا هـي إلا لحظـات حتـى غـاب الألم بعدمـا رأت ملكـة شـفافة كالمـاء بجناحـي مـلاك، وجههـا مبتسـم وعيناهـا زرقـاوان، يعلـو جبهتهـا تـاج بسـبع سـعفات نخيـل مبللـة بميـاه مطـر الخريـف، حملتهـا وطـارت بهـا وهـي تقـول لهـا:

- أنتِ ابنتي وإلى جانب عرشي ستكونين.

تنظــر لرفاقهــا يحملونهــا إلى المســعفين والدمــوع تنهمــر عليهــا، واشــتد البــكاء حــين قــال لهــم الدكتــور:

- ماتت، الرحمة والغفران لها.

تعـالى الـصراخ والصيـاح، أرادت الرجـوع لهُـم كي تحتضنهـم

وتشكرهم على فيض المشاعر المنهمرة على فقدانها، لكن دجلة أنزلتها في النهر، فتلاشت معها في المياه وبقيت تنظر من وراء شفافية مياه عين دجلة تحت جسر الجمهورية إلى جبل أحد والمتظاهرين، حتى سمعتها بنبرة الأم المواسية:

- قتلك زادهم أصرارا على البقاء وسترين من خلال عيني التي لا تنام يوم نصرهم ورفع اسمك فوق هامات المفسدين والقتلة.

سكنت في عين دجلة التي لا تنام، ثم قالت لروحها التي لا تشعر بثقل همومها بل طائرة تحلق في فضاء الحرية:

- تجري المياه في عين دجلة التي تغسلني من بؤس الماضي وتؤملني بغد مشرق على جباه المرابطين من المتظاهرين.

عزْرائيلُ والسَعدون بكمامته البيضاء

واقـفٌ بشـموخ ومسـجون وراء قضبـان الزمـن المندثـر، ينظر ولا ينظـر لـهُ المـارون مـن تحتـه، يعرفونـه ولا يعرفونـه، لكـن الآبـاء والأجـداد يعيـش فيهـم بمواقفـه الرافضـة لمصـادرة الإرادة العراقيـة في اتخـاذ قراراتـه المصيريـة. يسـمع أهازيـج إسـقاط نظـام سـياسي قبـض عـلى صـدور العراقيـين لسـتة عـشر سـنة ماضيـة، ترفـرف روحـه في داخـل ذاتـهِ الخالـدة في ذاكـرة العـراق. يحمـل بيـده اليـسرى أوراقـه ويشـير بيـده اليمنـى لنفسـهِ كأنـه يقـول:

- أنا لستُ عميل؟.

يتصاعـد الدخـان مـن سـاحة التحريـر الفرحـة بجيـش المتظاهريـن المرابطـين عـلى صدرهـا، يمـر منـهُ المختنقـون بسـموم دخـان الساسـة، يخطـف مـن أمامـه الجريـح يتلـوى في التوكتـك، يصيـخ السـمع لصرخـة أم الشـهيد وهـي تشـيع أبنهـا في سـاحة العـزة والكرامـة، ينقبـض صـدرهُ وتتـألم روحـه لينتظـر مـا بعـد منتصـف الليـل، وحينـما نـام الجميـع، نـزل مـن قاعـدة تمثالـه يتجـول في سـاحة التحريـر، يدخـل خيمـة الأم، سـهرانة تنـوح وهـو خلفهـا يسـمعها:

- كتلـوك وبعـدك شـاب مـا شـافت شي مـن الدنيـه.. اللـه ينتقـم منكـم.

لم يقدر على سماع الكثير من نواحها على أبنها الشهيد، فهرب وفي قلبه حسرة وفي عينه دمعة وضميرهُ غاضب، يمسح بعينيه نصب الحرية فيرى الشهيد والنائحات، مرحلة يراها ستنقضي إلى ما بعد تحطيم قضبان العبودية ليست من الانكليز بل هذه المرة من عملاء فاسدين ينتمون للعراق بالاسم؛ لكن في جوهرهم ليسوا عراقيين. يمشي إلى المسعفين من شباب وشابات، يفترشون حديقة الأمة وأرصفة الشوارع فيشعر بالفخر ذلك الجوال السعيد الذي حكم العراق كرئيس وزراء وحين أرادوا منه أن يكون عميلا انتحر أو اغتيل على أيدي المحتلين لكن روحهُ خالدة وموقفه لا زال محفورا في صفحات التأريخ. ينزل لنفق باب الشرجي فيرى الجمال بفرشات الرسامين الشباب الذين رسموا ملاحم التحرير من التوكتك وجبل أُحد والشهيد وباقي الثوار. يتجول في صمت، وصخب في روحه التي يريد لها أن ترجع ولو ليوم واحد بمادية الجسد كي يحقن الدماء ويعبر بهم إلى ضفة النصر. الزمن يجري ولا يرجع لنقطة إحياء الجسد بروحه لكن لا زال يحدث نفسه:

- إنهم قادة أنفسهم وسيفرزون قائدا ينجي سفينة الحرية من الغرق.

عيناه تحرقه وأنفهُ يهمل وفمه يسيل اللعاب فيه من بقايا دخانيات مكافحة الشعب في جو التحرير، وضع كفه

عـلى فمـه وأنفـه واتجـه إلى خـط الصـد الأول عـلى جـسر الجمهوريـة، كلـما اقـترب ازداد الظـلام، وقـف عـلى بُعـد عـشرة أمتـار كي لا يرونـه، منهُـم النائـم والمسـند ظهـره عـلى حائـط الصـد واثنـان أو ثلاثـة مسـتيقظون لكـن مـا لفـت انتباهـهُ هـو جمـرة سـيجارة في فـم أحدهـم نـادى عليـه:

- توقـف عنـدك وإلا هدمـت حجـارة تمثالـك المتواريـة فيهـا روحك.

لم يكن يتوقع أن يجده عند أبطال تشرين، ردَ عليه:

- اهـدم حجـارتي لكـن دع شـباب تشريـن يفلتـون مـن قبضتـك.

- أنـا لسـتُ سـوى رسـول يحمـل الأرواح قبـل أن تسـقط في هـوة العـدم.

أسكته ما قالهُ له لكن ملاك السماء أبلغهُ:

- لـو تعـرف كيـف يسـتقبل الـرب شـهداء تشريـن لتمنيـت أن تخلـق مـن جديـد وتستشـهد في نفـس اليـوم الـذي سـتخلق فيه .

- وكيف يستقبلهُم؟!.

- يسـتقبلهم بموكـب الأحـرار, يطـيرون بهـم عـلى أجنحـة الملائكـة الأطهـار.

اطمـئن والتـف راجعـا لكنـهُ سـمع سـؤالهُ وهـو يقـف منسـوجا بعتمـة الليـل البهيـم:

- ألم تكن جزءا من وصيتك: أن الشعب يُريد الخدمة والإنكليز لا يوافقون؟.

- نعم!.

- هذا الجيل سيجعلهم يوافقون.

- شكرا لبشارتك يا عزرائيل.

رجع وكلهُ أمل وتفاؤل في غد مشرق، يمشي بين رؤوس وأقدام المتظاهرين الصامدين وهو مبتسم غير مبال بما يعانيه من الجو المسمم، رأى قبل التوجه لقاعدته لافتة قرأ فيها:

« الرحمة والخلود لشهداء ذي قار»

صدمة كبيرة له، ظَلَّ يقرأ وعيناه تبكيان حين رأتا أن أكثر من سبعة وأربعين شهيدا سقطوا. يقبض عليه الغضب بشدة حين يرى الشعارات التي تريد أن تقول بأن مدينته مذبوحة وتنزف، هم بالنزول إلى نفق باب الشرجي لكي يصرخ ويلطم أو يعلن نفسهِ بأنه من سينتقم للناصرية والنجف وكل من سقط في ساحات الاعتصام، صده عزرائيل واقفاً:

- ارجع مكانك قبل أن تقتل الثورة بالإعلان عن نفسك.

- ماذا ستفعل؟.. ستقبض روحي مرة ثانية إذا لم أرجع؟.

- سيطر على غضبكَ ولا تدعهُ يهدم تعب ثوار تشرين.

ركع على ركبتيه وهو يقول لهُ بألم:

- مدينتي تُذبح وأنا سجين في جوف حجارة.

- انظـر إلى وجـوه ثـوار ٢٥ تشريـن سـترى الآلاف منهـم يسـيرون عـلى طريـق إسـقاط المفسـدين والعمـلاء كـما فعلـت، أمـا مدينتـك فهـي اليـوم تـصرخ بألمهـا لكـن الغـد سـيطيب جرحهـا.

حمـرة الفجـر لاحـت، اختفـى عزرائيـل ومـشى إلى قاعدتـه التـي رسـم عليهـا ذلـك الرجـل الثـوري وهـو يخطـب في البرلمان العراقـي، صعـد ووقـف وانـزوت روحـه في غرفـة الـذات التـي ترتـدي الحـداد على شـهداء الناصرية والنجـف وكل المحافظات. أشرقـت الشـمس حتـى لا حـت عـلى جبينـهُ ودبـت الحركـة من حولـهِ وهـو لا زال حزينـا حتـى منتصـف النهـار، صعـد شـابٌ يتأرجـح عمـرهُ بـين الثامنـة عـشرة والعشريـن سـنة، ألبسـهُ الكمامـة البيضـاء، سـمعهُ وهـو يقـول سـاخرا:

- لبسته الكمامة حتى ميختنك تمثال السعدون.

ضحـك أصدقـاؤه مـن المتظاهريـن وفـروا إلى قلـب التحريـر. ظـل صامتـا فرحـا مـن ارتجـال هـذا الشـاب لموقف ممكـن أراد منـهُ السـخرية لكنـه عميـق الدلالـة والإشـارة إلى الساسـة بأننـا مـن كـثرة سـم قنابـل دخانكـم ألبسـنا تمثـال عبـد المحسـن السـعدون كمامـة كي لا يختنـق ويمـوت، حـدث نفسـهُ بفخـر وعـزة:

- أنا الآن متظاهر وثائِر في ثورة ٢٥ أكتوبر.

شَهيد راية الحسين في الخلاني

ثابتة راية الحق في خيمة المتظاهر السلمي، واقفة بشموخ أبدي في ركن الخيمة، حمراء بلون دم ثائر كربلاء ومخطوط يا حسين بلون أبيض كريشة حمامة السلام، تمده بالقوة والعزيمة والثبات، تسند عقيدة حب الوطن، يمشي بها إلى كربلاء في كل أربعينية يعزي بها آل البيت الكرام، سلاحهُ في ثورة ٢٥ أكتوبر، ينظر لها كلما شعر بالتعب فترتسم ملامح معركة الطف في مخيلتهِ وكيف حملها العباس بوجه الطغاة، يشرب من كفي العباس ماء الصبر للقاء الرب بوجه العزة والكرامة، يسمع صيحات زينب في ساحة التحرير فتزيده ثباتا في وجه رياح الطغاة. ما أن سمع رصاصا يطلق في سماء الحرية، حتى خطفها من مكانها، يحملها على كتفهِ مع إخوانهِ الثوار، ترفرف فوق رؤوسهم فهي شعلة الثورة التي ترهب خفافيش بغداد، يطوي المسافة من رأس النفق باتجاه الخلاني وهو يصيح بثلة تتراجع خوفا من رصاص بنادق الموت:

- ارجعوا لا تشردون والحسين ميطبون.

سمعوه يقمع فيهم الخوف من موت لا يموت فيه من واجه رصاص من خان مياه وتربة العراق، ركضوا وراءهُ وما

إن وصلوا حتى تمترسوا وراء الصبات ما عداه قفز تحت جنح ليلٍ لا يضيء ساحة الخلاني سوى نار قنابل الملتوف التي قذفها قتلة الثوار السلميين، توهج اسم الحسين بين ذراعيه وهو يؤرجح الراية يمنة ويسرة وهو يصيح بأعلى صوت:

- يا حسين.. يا حسين.. يا حسين..

قفز اثنان بجانبه يقذفون القتلة المارقين بالحجارة، سقط الذي على يمينه بعد أن اخترقت رصاصة ساقه، سند الراية بيمينه وحملهُ على ظهره والرصاص ينهال عليهما كالمطر، رماهُ ما وراء الساتر، وهمَ راجعا لكن أصدقاؤه أمسكوا به لكنه صرخ في وجوههم:

- هدوني اليوم أريدهُم يكتلوني مثل ما كتلوا الحسين بطف كربلاء.

قفز الساتر وبقي ثابتا يهز الراية بوجوه ملثمة تخاف أن تواجه صاحب راية الحسين بوجه مكشوف، انتابهُ ألم موجع بكتفه الأيمن، كادت الراية أن تسقط، فصرخ بوجه الظلم:

- اني ابن العباس الي ما طاحت رايته.

الواقف بجانبه أصيب أيضاً فسحبوه من دائرة الموت، حاولوا مع حامل الراية لكنه أبى إلا أن يكون ضيف الحسين، أتتهُ الرصاصة الثانية في ساقة، ثنى ركبته وروحه

تـأبى السـقوط، ينظـر للرايـة تداعبهـا نسـمات تشريـن الحزينـة، ركـضَ صديقـه الـذي لم يتحمـل أن يتركـهُ في مرمـى رصـاص الجبنـاء، قبـل أن يصلـه أتتـه الرصاصـة الثالثـة في بطنـه، تهـاوى للـوراء لكـن صديقـه احتضنـهُ عـلى صـدره وهـو لازال قابضـا عـلى رايتـه، جـرهُ مـع رايتـه بيـد والأخـرى يلـوح بهـا بالعلـم العراقـي، يـرى الـدم خـرج مـن فمـه، يتمتـم لا أحـد يسـمعهُ، عـبر بـه خلـف السـاتر، ارتخـت يـدهُ، لاحقهـا بعينـين تفيضـان دمعـا ليـس عـلى تركـه الحيـاة بـل عـلى الرايـة التـي سـوف تسـقط لكـن صديقـهُ خطفهـا مـن كفـهِ الملطخـة بـدم صديقـه الجريـح لتكـون مـع العلـم العراقـي بقبضـة واحـده، تبسـم في وجـه صديقـه وهـو يلفـظ أنفاسـه الأخـيرة بكلمـة غـادر بعدهـا الحيـاة:

- يا حسين.. انصر العراق..

صاح صديقه، ناظرا في عينيه وجسده المضرج بالدماء:

- ولك أبو الغيرة عباس هاي الراية ما نزلت الكاع.

هبـوا كلهُـم إلى السـاحة غـير مبالـين بالمـوت مـا دام المـوت تحـت رايـة شـهيد كربـلاء والعلـم العراقـي بقبضـةٍ واحـدة، والتـي تاجـر بهـا أصحـاب البنـادق القتلـة لسـنواتٍ طـوال، ارتفعـت روح عبـاس إلى ديـوان الـرب حيـث الحسـين واقـف يرحـب بـهَ:

- أهلا بشهيد راية الحسين لأجل نصرة العراق.

صقر التحرير

منذ ٢٥ أكتوبر ازداد توافد المتظاهرين على ساحة التحرير، فكان حاضرا أبو التوكتك المسعف والناقل للناس من وإلى بلا مقابل، ترك سائقو التوكتك عوائلهم ورابطوا على رأس جسر الجمهورية والسنك والأحرار وفي كُل بقعة من ساحة التحرير وما يُحيط بها، يسعف المصابين حين تستعر نار المواجه بين المتظاهرين السلميين ومكافحة الشعب، بينهم المختنق والجريح برصاص، سال الدم الكثير في عربة ميكانيكية من ثلاث عجلات تخترق الحشود لصغر حجمها ومهارة سائقها، عاش الكثير بفضل أبو التوكتك ومات آخرون كانت إصاباتهم مباشرة في الرأس. دخل قلوب العراقيين المنتفضين بشجاعته وتضحيته وفدائه، فكان ولازال لهم نصيب من الشهادة فكثير من سائقي التوكتك استشهدوا حين استهدفوا برصاص أو دخانيات الملثمين ما وراء الصبات. في حين أغلب الناس هناك كانت تنظُر نظرة استصغار لأبي التوكتك لكن موقفه في ثورة أكتوبر جعلتهُ أيقونتها. رسمه الرسامون على جدران التحرير وتغزل به وبشجاعته الشعراء وغنى لهُ المطربون ونال رضا الأم العراقية التي ترفع كفيها له بالدعاء ليل نهار. إنه الطائر

الـذي غـرز مخالـب غيرتـه في قلـب الساسـة السـارقين بمواقفـه السـامية الإنسـانية، أسـقطَ رمـوز كثـيرة بنقـر منقـاره ذواتهـم العليلـة. شـدني منظـر محـزن ومفـرح في الوقـت آنـه، حينـما رأيـت توكتـك محترقـة وسـائقها جالـس فيهـا يبتسـم ويشـير بيـده علامـة النـصر. عرفـت قصتـه منـه بأنـه تعـرض لدخانيـة ورصـاص حـي أدى إلى احـتراق التوكتـك، غرغـرت عينـاه بالدمع عـلى الرغـم مـن ابتسـامة فـرح لاحـت عـلى ثغـرهِ، لم تغـادره. بعـد أن تبادلنـا التحيـة، سـألته:

- أوهسه شلون راح اظل بلا توكتك؟.

أشار بيده وقال:

- ذيج التوكتك مالتي الجديدة.

- ومنو اشتراه الك؟.

أمسك بي من كتفي وهو يسمعني:

- بنفـس اليـوم الي احـترك بيـه توكتـكي تبرعـوا النـاس بالتحريـر ورحـت اشـتريت وحـده جديـدة.

بقيـت صامتـا، لا أعـرف مـاذا أقـول لـه أو بـم أجيبـه!!، فظـل أبـو التوكتـك ينظـر لي بعينـي مـن يفخـر بنفسـه، وهـذا حقـه بـأن يفخـر بنفسـه وناسـه المليئـين بالنخـوة والشـهامة تجمعهـم خيمـة حـب الوطـن التـي لـن تثقـب برصـاص الغادريـن مـا دامـت دروع العراقيـين صامـدة بوجـه شـياطين الخـضراء. أثنيـت عـلى النـاس المتبرعـة لـه وعليـه كرجـل عراقي

شـجاع أنقـذَ الكثـير مـن الثـوار، ثـم سـألته:

- أنت ليش تجي هنانه تكعد بالتكتوك المحروكه؟.

- أولاً أني أحبـه وثانيـاً أريـده تبقـه رمـز لمـا بعـد النـصر أن شـاء اللـه وثالثـا...

صمت وكأنه استحى أن يذكرها، فقلت له:

-كلي شنو ثالثا.. لا تستحي.

- إذا اكلك مصدكني.

- والله اصدكك.

- مـن يـوم احتركـت لحـد يومـك هـذا أني أشـوف هـذا التوكتـك المحـروك طايـر بسـماء التحريـر.

ثقافتـه بسـيطة لكـن وعيـه بحـب الأشـياء رسـم لـه خيالـهُ حقيقـة مـا عليـه التوكتـك كأنـه صقـر يحلـق في سـماء التحريـر، لذلـك رديـت عليـه:

- والله مصدكك ولأجل هذا فالتوكتك هو صقر التحرير.

احتضنـني ووعـدني أنـه سـيكتبها عـلى ظهـر تكتكـه الجديد، طـار إلى رأس جـسر الجمهوريـة وبقيـت أسـند ظهـري عـلى رمـز العـراق الجديـد ألا وهـو التوكتـك صقـر التحريـر.

جبل أُحد في ساحة التحرير

صوت الثائِر المسجون خلف قضبان الذات المُحبطة تحرر بقوة إرادة الحر في شباب تشرين الأحرار، حين خرجوا لساحة التحرير في بغداد في الأول من أكتوبر، تجمعوا أمام وخلف نصب الحرية، هتفوا باسم العراق، حاملين علم بلاد السواد في سماء انحلت غيومها من صرخات حناجر لا تعرف الخوف، سقط شعاع من شمس سجينة كانت على جباههم لكن القناصين كانوا يعتلون البنايات فيما حول ساحة التحرير، خفافيش الظلام لم ترتجف أصابعهُم خلف أزِندة بنادقهُم الصماء، ضمائرهم ميتة وقلوبهُم سوداء، سقط المتظاهرون برؤوس مفجرة برصاص بنادق القناصين لكنهُم طاروا يصرخون في ذوات العراقيين ليحرروها من سجنها، خرجوا بالآلاف يشيعون أبناء العراق المغدورين والخالدين في سماء النفس والذاكرة حيث أرشيف التأريخ الحي الذي لا يموت مهما مرت الأيام والسنوات. عمَ الهدوء بعد مراسيم دفنهُم المقدس، تدفق الآلاف غاضبين للساحة إلا واحدٌ من المتظاهرين تقدمهُم تاركاً نصب الحرية خلف ظهره ليصعد إلى بناية المطعم التركي التي تعتبر موقعا استراتيجيا يطل على ساحة التحرير بأكملها

وجسر الجمهورية الممتد بين ضفتي دجلة وباقي محيط التحرير. وقف على سطح الطابق الثالث ومن ورائهُ ما تبقى من طوابقهُ الأربعة عشر، يلوح بالعلم يميناً ويساراً كأنه ينادي على المتظاهرين:

- اصعدوا إلى المطعم التركي فهذه قلعتنا.

حُب الوطن يوجه عفوية الإنسان لاتخاد قرارات صائبة وهذا ما حصل مع حامل العلم بقوة إرادة صلبة لا يخاف أن يقنصهُ قناص، فقد غادر منطقة الخوف إلى منطقة الفداء حيث تتسامى فيها الروح فترفض الجسد وتريد الخلود في ذاكرة العراق بموقف مشرف لا يشترى بأموال الدنيا. الواحد تلو الآخر صعدوا وهُم ينجرون بقوة خفية سحبتهُم خلال ساعات إلى مجاميع متمركزة ومتفرقة على عدد طوابقهِ. وجهت كاميرات الإعلام والصحف إلى قلعة المتظاهرين الجديدة التي مثلت صفعة قوية ومُفاجأة على خد السلطة النائمة في بحر أموال مسروقه من جيوب العراقيين. كُنت واحدٌ منهُم مُصدق للحظة ومكذب ما أنا فيه، تعبت من الصعود والتجوال وفرح لرؤيتي وجوه المتظاهرين الفرحة وهم يحققون نصراً على الواقفين المذهولين في الضفة الأخرى من دجلة. دخلت التكاتك والناس أفواجاً، يقفون على حافة النوافذ المخلوعة بأعداد كبيرة حتى أصبح خلال أيام مزارا، لكني سمعت

وأنـا أتجـول كعـادتي كمتظاهـر في طوابـق المطعـم الـتركي شـابا ضعيـف البنيـة بوجـه غاضـب وقـد تمكـن منـهُ الحـماس الثـوري يقـول لصديقيـه:

- ما ننزل من جبل أحد لو تنكلب الدنيه.

مصـدوم ومتفاجـئ وفـرح في الوقـت ذاتـه بوعـي شـباب أكتوبـر كيـف يخيفون الفاسـدين بتسـمية زلزلـت كيانهُم، لأنهُم لا يعلمـون أن مـا ينبثـق مـن تسـميات عـلى أماكـن في مناطـق شـعبية وتقاطعـات طـرق في العـراق لا يمكـن اسـتبداله حتى لو كان الحاكـم أطغـى حُـكام الأرض، فالعراقـي متشـبث بمـا يخرج مـن وعـي جمعـي عـلى لسـانه وهـذا مـا حصـل للمطعـم التركي حـين أطلقـوا عليـه تسـمية جبـل أُحد فانتـشرت التسـمية كالنار في الهشـيم. وأذكـر رد صديقـه الآخـر يسـأله:

- يعني مثل المسلمين إلي بقوا على جبل أحد؟.

- أكيد.. أحنه مثلهُم.

لم أكـن أنـا المتظاهـر بعمـر الخامسـة الثلاثـين لأتخيـل جيـل الببجـي والتوكتـك يملـك خزينـا مـن وعـي وخيـال فنـي يشـبه المطعـم الـتركي بجبـل أُحـد بعمـق معناهـا مـن وقفتهُـم بوجـه الظالمـين حتـى يتحقـق النـصر وينزلـوا مـن عـلى كتـف جبلهُـم كي يشربـوا مـن ميـاه دجلـة ومـن ثُـم يغتسـلوا ويقفـوا دقيقـة صمـت عـلى أرواح مـن سـقطوا في ثـورة أكتوبـر أمـام جبـل أُحـد في سـاحة التحريـر.

قُنْبُلة في عين الثائِر

ترهيب السلطة الغاشمة لم ينفع مع شباب أكتوبر الواقفين بوجه قنابل الدخان المسيل للدموع والرصاص، فكان أحدهم أحمد الشاب العاطل عن العمل، علق شهادة الهندسة على حائط غرفته وذهب للشورجه يعمل عتالا، لا عيب في العمل ما دام شرفا لا يمد يده للغير فيريق ماء وجهه بل العيب أنه تعب لسنوات كي يكون مهندسا يعمل بمصنع أو شركة لكن لا فرصة في بلد ارتدى الحداد على موت كفاءاته بسبب سراق الخضراء الذين جعلوا الأحلام سوداء بعين الشاب العراقي وهو يرى سنين عمره تندثر بلا معنى، فكان أحمد أحدهم منذ اندلاع التظاهرات في بداية أكتوبر، سلمي لا يحمل سوى علم العراق، لكن مكافحة الشعب وعصابات السارقين يمطرونه مع المتظاهرين بالقنابل الدخانيه والرصاص، ظَلَّ ما بعد ٢٥ أكتوبر وهو يعيش أفضل أيام حياته، يسبح في بحر الحرية، يأخذ حقه بعد انتصار الثورة يوما بعد آخر حتى قال لنفسه في مرة من المرات حيث يجلس تحت نصب جواد سليم:

- أني مو تعبان ولا حزنان ولا فرحان، أني حر بوطن

حسـيته ولمسـته ومسـحت دموعـه مـن عـلى خـده.

في فجـر اليـوم التـالي شـعر بروحـه تستشـيط نـاراً لمواجهـة الشـغب بخـط الصـد الأول عـلى جـسر الجمهورية غير مشـاغب بـل مدافـع عـن سـاحة التحريـر التـي علمـت العـالم الرجولـة بالمجـان ومعنـى أن تكـون سـلميا لهـز عـروش الظالمـين. بـين كـر وفـر تلقـى قنبلـة دخانيـة في عينـه، سـقط وهـي تنفـث دخـان غضـب سـارقي الأحـلام في عينـه التـي كشـفت للعـالم مـدى بشـاعة جريمـة حـكام العـراق. نقلـوه بالتوكتـك للمفـارز الطبيـة المرابطـة مـا وراء نصـب الحريـة، يلفـظ أنفاسـه الأخـيرة عـلى أرض الحريـة، تحـاول الطبيبـة أن تنتـزع القنبلـة مـن عينـه لكنهـا ثابتـة لا تتحـرك في جوفهـا، أمسـكَ كفهـا وهـو يقـول كلماتـه الأخـيرة:

- لا تنزعيهـا مـن عينـي لأني دا اشـوفهم مـن خـلال قنبلتهـم مهزومـين. وابتسـم بعدهـا قائِـلاً:

- كلهُم إلي بالخضراء حلويات.

مـات وظلـت العيـون الباكيـة عليـه تـرى قنبلتهـم في عـين الثائِـر دليـل إدانتهـم وخوفهـم وعجزهـم عـن صـد مجـرى شـباب الحريـة الـذي سيكنسـهم في مزبلـة التأريـخ.

الفهرس

الإهاء ٥
لَيْث بغداد في عرينِه ٧
شُهَدَاء الحُرِّيَّة في قلبِ الرَب ١١
قِلادة ثِائر ٢٥ أكتوبر ١٣
الثائِر الذي لا يموت ١٥
حَمامة فوق تابُوت الشَهِيد ١٧
الحُب في قلبِ التحرير ١٩
امرأتان من مياه الحُرِّيَّة ٢٣
أَمِيرة الحُرِّيَّة النائِمة ٢٥
مَسرحي على خَشَبة الحُرِّيَّة ٢٧
رَسّام جِدَارية أكتوبر ٢٩
النائِم على رَصيف الحُرِّيَّة ٣١
شَهِيد شارِع الرشيد ٣٣
أُم الغيرة تحتَ جِسر السنك ٣٥
بائع شاي في نَّفَق باب الشرجي ٣٧
عَنقَاء ساحة التحرير ٣٩
طائِر جدارية الحُرِّيَّة ٤٣
ميلاد وحسن أبو التوكتك ٤٧
خبز أم العباية ٥٣
ثائِرة التحرير ٥٥
صُنْدوق ٢٥ أكتوبر ٥٧
سياح الجَنوب في سَاحة الصمود ٥٩
نَوارس الحُرِّيَّة ٦١
الحُب في عُشّ الحُرِّيَّة ٦٣

شَرِيط الثوار الأبيض ٦٧
شَهيدة في عين دِجلة ٧١
عزْرائيلُ والسَعدون بكمامته البيضاء ٧٥
شَهيد راية الحسين في الخلاني ٨١
صقر التحرير ٨٥
جبل أُحد في ساحة التحرير..... ٨٩
قُنْبُلة في عين الثائِر ٩٣